الشاعر پترارك والهيومانية

كانت أولى رحلاتى خارج باريس (١٩٢٦) متجهة إلى الجنوب الفرنسى لزيارة إقليم البروڤانص (بالصاد) . ونزلت بمدينة آڤينون . وفى متحف المدينة تطوع الشاب القائم به ليكون دليلى إلى مختاراته من الصور أو التماثيل . وأهم من الزيارة ذاتها كان حديث الشاب عن الشاعر الإيطالى پترارك ، عرفت منه أن الشاعر أقام ردحًا من شبابه فى إقليم البروڤانص . وكتب فيه أشعار الهيام بحبيبته «لاورا» على البعد . فاشتريت بعد مغادرتى للمتحف ترجمة فرنسية لشعر پترارك فى ديوان مشتمل على قصائد قصيرة تعرف بالكانزونييرى . ألفها باللغة اللاتينية الدارجة ، وهى الإيطالية . وفى سيرة « دانتى وپترارك » تأليف ليوناردوبرونى (١٣٦٩ ١٤٤٤) الذى يزعم أن (بلاغة الأسلوب لا تكتمل إلا فى اللاتينية) . ولأن أهم تآليف دانتى باللغة الإيطالية ، فإن برونى – مع اعترافه بمواهب دانتى – يفضل عليه پترارك الذى أعاد البلاغة إلى أسلوب اللاتينية بفضل عبقريته ، بعد أن كان الانطفاء قد أصابها بمضى القرون .

علمت من حارس المتحف أن پترارك أقام فى فوكلوز ، بموضع اسمه «ايل – سور – سورج» فبادرت بزيارته ، وتمتعت بما أفاضت عليه الطبيعة من سحرها شجرًا ، وخضرة وغديرًا .

واضح أن پترارك اتجه بعاطفته إلى العصر القديم (الكلاسيكى) فى إعجاب شبه رومانتيكى . ولهذا ينظر إليه المؤرخون كأول باعث على الثورة الفكرية التى مهدت لعصر «الإحياء» فيوصف بأول الهيومانيين ، ولكن ما هى الهيومانية ؟

التعريف بها – وهذا غير التعرف عليها – هو : دراسة علوم الإنسانيات ومعارفها . وفى مطلع القرن الخامس عشر (بالإيطالية : الكواتروتشنتو) تطور المبنى والمعنى إلى الثقافة بأوسع معانيها ، مركزة على كل ما جاءت به الحضارة الرومانية التى ترتكز فكريًا على حضارة الإغريق ، من علم وأدب وفلسفة . . وفنون . وهذه فى مجموعها تحقق اكتمال الإنسان وسعادته فى مواجهة اللاهوت والتبحر فيه بما يعرف فى تنظيماته «بالإسكولائية» لا إنكارًا للعقيدة المسيحية ، وإنما لإقامة موازنة عقلانية بين الدين الثاوى والثابت فى ضمير الإنسان ، وبين العناية بالعصور الكلاسيكية فى حضارتها التى تعنى بشئون الإنسان فى دنياه .

فالهيومانية هى ممارسة وتحرٌّ عمَّا قدمته حضارة اليونان والرومان . وحتى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، كانت الجامعات الأوربية الكبرى تحفل بتكوين شبابها على أساس من الإنسانيات .

والإنسانيات موصوفة بدراسة اللغتين : اليونانية واللاتينية ، وأعمال أدبائها وفلسفتها ، وعلمائها ، وفنونها التشكيلية ، عمارة ، وحفرًا ونحتًا وتصويرًا وما يمكن التوصل إليه من علم بالموسيقى مربية الروح ، وبالجمناستيق مقومة للجسد .

والملاحظ بعد نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٤٦) أن عددًا هامًا من كليات الآداب أضافت إلى اسمها «العلوم الإنسانية» .

وصف الهيومانية واحد من عظمائها ، جوڤانى پيكوديلاّ ميراندولا ، قال : «فى هذا التاريخ الماضى ، مما حرك روح الإنسان ، وفتح رئتيه فأحياه ، لاشىء يمكن أن يموت من إيمان ، ولسان ، وعمل ، وفنون وآداب ، وعلوم وفلسفة . وقد وضع أهل القرون الغابرة فى هذه المجالات علمهم ، وسعيهم ، وإيمانهم ، وعواطفهم الطيبة» .

وليس معنى هذا أن نتجاهل العصر الوسيط ، أو نمتهن فكر أهله . ولقد تغذى هؤلاء بالأدب الرومانى ، ومن الحق القول مثلاً ، بأن الراهبات فى ذلك العصر كن يقرأن شعر «أوڤيد» مهندمًا ، وحكايات حرب طروادة ، وإنياس (بطل «الإنياذة» ملحمة فرجيل) فى تاريخ روما .

وأحسبنا لا ننسى شارلمان (شارل الأكبر) ملك الفرنجة ، وفيما بعد إمبراطور الرومان (٧٤٠ - ٨١٤) . وهو حفيد شارل مارتل الذى أوقف زحف العرب والمغاربة فيما يصفه التاريخ الإسلامى

بمعركة «بلاط الشهداء» ، على مقربة من پواتيه ، فى وادى نهر اللوار .

فى عام ٧٧٧ استنجد حاكم برشلونة المسلم (ابن العربى . وهو غير ابن عربى طبعًا) بالعاهل المسيحى شارلمان ، ليعينه ضد الخليفة فى قرطبة . فعبر شارلمان وجيشه جبال البيرينيه وحاصر مدينة پامپيلونا المسيحية ، وعامل أهل الباسك (الباشكونس) المسيحيين معاملة الأعداء ، وتقدم حتى سراجوسا (سرقسطة) . ولكنه لم يلق أثرًا لثورة المسلمين على خليفتهم ، التى وعده بها ابن العربى ، فاضطر إلى التقهقر ، إذ أدرك أنه لا يستطيع بجيشه أن يتحدى خليفة قرطبة . وفى رحلة العودة ، هوجم فى ممرات الجبال ، وخاصة فى ممر «رونسڤال» بقوة من الباشكونس قضت على جيشه ، وقتل فيها «هيرودلاند» وهو المعروف فى الأدب الفرنسى القديم باسم «رولان» ساعد شارلمان الأيمن . . وألفت الملحمة بعنوان «شانسون ده رولان» بالفرنسية القديمة ، بعد ثلاثمائة عام من مأساة ممر «رونسڤال» .

نجح الإمبراطور شارلمان فى حروبه ، ولو أنه كان فى حقيقة نفسه رجل سلام يعشق الإدارة ، لا الحرب . وتعتبر «أوامره العالية» الخمسة والستون أهم مجموعة تشريعية فى العصر الوسيط . وبها شرع للزراعة والصناعة والمالية والتربية . والشئون الدينية ودستور الحكم .

هذه خلاصة للعشر صفحات التى خصصها مؤلف كتاب الحضارات «ويل ديورانت» لشارلمان . وكنت أبحث خصيصًا عن

حكاية الساعة التى بعث بها الخليفة هارون الرشيد للإمبراطور الجرمانى ، فلم أعثر لها على أثر ، إلا ما يلى :

« وفى سبيل حماية إمبراطوريته الواسعة ، من اعتداء بيزنطة ، عقد عهدًا مع هارون الرشيد ، الذى ختم اتفاق الدولتين الكبيرتين بإهداء عدد من الأفيال ، مع مفاتيح المقدسات المسيحية ببيت المقدس » .

ولكنى لاحظت وصفًا للمؤلف الأمريكى الكبير (ديورانت) دلنى على صدق حكمه ، قال : « ينبغى ألا نغالى فى الصفات العقلية لهذا العصر (العصر الوسيط) . فإن هذا الإحياء الأسكولائى كان صحوة أطفال ، إذا قورن بنضوج الثقافات المعاصرة فى القسطنطينية وبغداد ، وقرطبة » .

ولم تطل إمبراطورية شارلمان بعد وفاته فى السنة السابعة والأربعين من توليه ، والسنة الثانية والسبعين من عمره .

وعندنا غير هذا مما يصحح التسمية « العصور المظلمة » قول البابا جريجوار الأكبر إن دراسة الفلسفة اليونانية والآداب الكلاسيكية كانت عونًا كبيرًا على تفهم « الكتاب المقدس » . ومن عظماء العصر الوسيط آباء الكنيسة الكبار : سان جيروم (هيرونوس) ، والقديس يوحنا فَمّ الذهب (خريسوستوم) .

والآثار الدينية للعصر الوسيط كنائس وبيع تشهد بأصالة فن

العمارة ، وشخصيتها فى الأسلوب العجيب الذى لفت نظرى ، صبيًّا ، وأنا أشاهد صور الكنائس المبنية على الطراز القوطى (جوتيك) .

كما تفهم علماء ذلك العصر أرسطو . وقد جعل دانتى اليجيرى موضعه خارج الجحيم هو ومفكرين آخرين ، واختار الشاعر فرجيل الرومانى الوثنى دليلاً له فى ارتياده للجحيم (الجزء الأول من الكوميديا الإلهية) .

وكان أهل العصر الوسيط يعتبرون أسلوب سيسيرون منتهى البلاغة فى اللاتينية . وثَمَّة من المؤرخين من يصف الشاعر پترارك بالجد الأعلى للهيومانية ، كما يوصف الفيلسوف الهولندى إيراسم : بابا الهيومانية .

أقام پترارك مكتبته بجهد نائط ، من شعر فرجيل ، وملحمته «الإنياذة» إلى كتابات سيسيرون ، وإلياذة هوميروس بلغتها الأصلية . وكان پترارك يجهل اللغة الإغريقية ، فيقول : «إن هوميروس إلى جانبى ، ولكنى لا أعرف كلامه . فأقبّل صورته من حين إلى حين ! » .

وپترارك ، باستثناء أشعار شبابه قرضها باللغة الإيطالية ، ألف أشعاره ، وحرر رسائله بلاتينية فصحى . وله بهذه اللغة ملحمة لم تتم بعنوان «إفريقيا» وكتاب عن «مشاهير الرجال» .

يقول ويل ديورانت فى المجلد الرابع لموسوعته المسماة «قصة الحضارة» :

«كان عقل فلورنسا أسير الهيومانية ، تحول من التدين البالغ إلى الفلسفة ، أنزلها من السماء إلى الأرض ، لتكشف للجيل المتدهور عن الفكر الوثنى وفنونه . ووصف رجال العلم والأدب والمهتمين بالكلاسيكيات ، بالهيومانية . وقام عشرة من الهيومانيين ، قبل سقوط بيزنطة فى أيدى العثمانيين بخمسين عامًا ، بزيارة أرض الإغريق ، وعاد أحدهم إلى فلورنسا بثمانية وثلاثين ومائتى مخطوط ، فيها مسرحيات إسكيلوس وسوفوكليز . واقتنى الثانى من هناك نصوصًا لهيرودوتس ، وتوقيد يدس ، ويوليبيوس ، وديموستين ، وأرسطو ، وسبع درامات لأوريبيدس . ومما أن الكثرة من هذه الكتب يونانية اللغة ، فقد اشتد الطلب على أرض الإغريق لتوفد إلى إيطاليا معلمين لتلك اللغة .

درست المخطوطات ، وضُوهيت بعضها بالبعض . واختص فريق من الهيومانيين بشرح محتوياتها . واستقر فى إيطاليا يُؤَنَّس بصاريون ، رئيس كنيسة نقيا بآسيا الصغرى ، وساعد فى تدريس اليونانية . كما انتقل الكثير من مواطنيه إلى المجتمعات الإيطالية كمدرسى للغة وآدابها وفلسفتها .

ولم تنتظر تلك النصوص العظيمة تخرج الدارسين للغة ، بل بادر بترجمتها كل من حذق اليونانية . وكان هذا بالذات عصر اكتشاف

أفلاطون ، فأعجبوا بحواره ، ورأى بعضهم أنه يفوق أمثاله فى درامات إسكيلوس وزميله . وقدّروا بإعجاب ما جرى فى حياة سقراط من نقاش عميق حول مسائل العقيدة . والشئون السياسية . وانتهوا إلى أنّ الأفلاطونية ، مغلفة بسحاب أفلوطين ، فلسفة تصوفية ، يسرت لهم السبيل إلى وفاقها بالمسيحية .

وعندما رأى كوزيمو المديتشى (١٤٤٥) حماس الدارسين لأفلاطون أنشأ فى ذلك العام الأكاديمية الأفلاطونية . وكلف العلامة مارسيليو فتشينو (١٤٣٣ - ١٤٩٩) برئاستها ، فهو صاحب الرأى بأن التعاليم الأفلاطونية أساس وتوكيد للعقيدة المسيحية ، فكرس نصف عمره لترجمة أعمال أفلاطون .

ولا تَحْسَبَنّ الإقبال على كنوز الحضارة الإغريقية أوقف الإعجاب والمتابعة لآثار الرومان ، وهم الأقربون ، فتمكنوا من محاكاة بلاغة سيسيرون ، وشعر فرجيل وهوراس .

ظلت الهيومانية حية فى فلورنسا ردحًا من الزمن ، وحينما انتخب واحد من أسرة المديتشى للكرسى البابوى فى روما ، انتقلت إلى روما ، ومنها انتشرت فى الإمارات الإيطالية وكان من أثرها ، لقرن من الزمان ، السيطرة على الحياة العقلية والروحية لغرب أوربا .

وينبغى أن تتذكر دائمًا رنين « الأستطيقية » (علم الجماليات) فى مجالات الهيومانية ، ففى كتاب لفليبى ڤيلانى (نهايات القرن الرابع

عشر) يقول بأن مجد فلورنسا فيمن عشقوا فَنّ المصور تشيمابوى الذى قارب الطبيعة فى لوحاته ، وكان فتحًا لباب الفن الجديد . وجاء بعده چيوتو ، ذو الفضل العميم فى شهرة فن التصوير . وفى القرن الخامس عشر ظهر الصائغ والنحات ، والاختصاصى فى صب البرونز ، والمعمارى لورنزو جيبرتى (١٣٧٨ – ١٤٥٥) ولد وختم حياته بفلورنسا . اختارته نقابة التجار الفلورنسيين ليصنع بوابة من البرونز ، انتهى من نحتها وصبها سنة ١٤٢٤ ، وأعد غيرها فيما بعد . وطلب منه إعداد بوابة ثالثة تمت عام ١٤٥٢ ، هى المقامة فى مبنى المعمودية أمام «الدومو» أى الكنيسة الرئيسية فى فلورنسا . ما أكثر ما عدت للتأمل فى هذه التحفة العظيمة طوال إقامتى بمدينة «الحسن والجمال» . يتألف إنجازها من تربيعات تضم كل منها منظراً يمثل شخصيات ووقائع من «العهد القديم» (القسم الأكبر فى الكتاب المقدس) كأنها لوحة تصوير . ولكن من البرونز . وهذا عمل مدهش فعلاً ، استغرق إتمامه خمسين عامًا «بالتمام والكمال» وأظن القارئ يتخيل ، كما أتخيل ، أن كل تلك الألواح المحفورة ، تحتوى على نحت بارز بروزاً خفيفاً من سطح الخلفية (باه – روليف) – يتم صب البرونز ، وتظهر ضلفتا الباب كعمل فنى يثير الإعجاب بضخامته ، وجمال اللوحات البرونزية التى تزين كل ضلفة طولاً وعرضاً . وصفها ميكل أنجلو وكأنها «بوابة الفردوس» .

وليون باتستا ألبرتى (١٤٠٤ – ١٤٧٢) المعمارى المولود فى جنوا ، من أشهر فنانى «الرينسانس» عمل فى فلورنسا منذ سن

الرابعة والعشرين . تنسب ذيوع فن التصوير إلى المعمارى برونلّيسكو . وألحق أن دوناتلّو النحات ، وجيبرتى المعمارى ، هما الأصل فى إحياء الفن التشكيلى .

وتمت صحوة الأدب ، فقال فتشينو ، رئيس الأكاديمية الأفلاطونية : « ذلكم دون مراء هو العصر الذهبى الذى أعاد إلى الأضواء : البلاغة ، والتصوير ، والعمارة ، والنحت والموسيقى . وحدث كل ذلك فى فلورنسا من أهلها ، أو من الدارسين فيها .

وفى منتصف القرن السادس عشر ، وضع ڤازارى المصور والمعمارى (١٥١١ - ١٥٧٤) تاريخ الفن الإيطالى فى كتابه « سير عظماء المعمار ، والتصوير ، والنحت الإيطالى » . ڤازارى هو الذى وسم العصر بكلمة « ريناتشيتا » ومعناها « الميلاد من جديد » . وقسم مؤلفه الهام إلى ثلاث حقب :

الأولى تبدأ من منتصف الثالث عشر حتى فنانى توسكانيا ، وعاصمتها فلورنسا .

والثانية طوال الخامس عشر (برونلّيسكو ، مازاتشيو ، دوناتلّو) وهم الذين تم لهم التوفيق فى محاكاة الطبيعة .

أما **الحقبة الثالثة** فزمانها القرن السادس عشر ، حقبة الاكتمال : حيث يقول المؤلف : « يمكننى التوكيد واثقاً بأن الفن فى خلالها حقق كافة ممكناته فى تقليد الطبيعة ، وارتقى إلى أعلى عليين ، مما يجعلنا

نتوقع فى وجل ، هبوطه بدلاً من أن يأتينا بتقدم جديد» .

هذا ما كان من أثر الهيومانية على أوربا منذ مطالع القرن السادس عشر فإن البلاد عَبْرَ جبال الألب أقرت واعتمدت الهيومانية الإيطالية فى النهوض بكل الفنون . وما أصدق عظيم الفن الألمانى ، المصور «البريخت دورير» حين قرر أن «التصوير الذى أهمل أمره حتى ضاع فى خلال ألف عام تلت انحلال الإمبراطورية الرومانية ، واستمر الضياع حتى هب الإيطاليون منذ مائتى عام وأعادوه إلى الضياء» .